

مقتطفات مترجمة من كتاب

Ilija Trojanow
Der Weltensammler
Roman
Carl Hanser Verlag
München 2006
ISBN 3-446-20652-3

الصفحات: 20-24, 75-76, 78-80, 109-111, 119-120, 161-164

إيليا ترويانوف
"جامع العوالم"

ترجمة أحمد فاروق

المقتطف الأول

عند الرسو صار لخداع المنظار رائحة. بُني الميناء فوق أسماك عفنة غمرها بول جاف وماء مصفر آسن. على الفور وُضعت الأكمام فوق الأنوف. قرون من العفونة، أقدام حافية تدك الأرض الصلبة التي يقف فوقها رجل بزي عسكري غارقا في عرقه وهو يصيح. نظر القادمون حولهم بتردد. تأجل الفضول إلى حين إشعار آخر. اترك لنا كل شيء، سنتولى القيام بكل العمل من أجلكم! بحذر مترفع رد ريتشارد بيرتون على الإنجليزية اللزجة للوكيل بالهندوستاني. نادى أحد الحمالين كان يقف جانبا وتجاهل اللغظ من حوله، سأل واستمع وساوم، ثم راقب كيف تُحمّل صناديقه على الظهر، ثم تُنقل إلى إحدى عربات الحنطور المنتظرة. قال الحوذي إن الطريق ليست بعيدة وإن أجرته قليلة. مرقت عربة الحنطور بين حشود البشر مثل قارب مجرور وسط مجرى مائي تطفو فيه طواق ورؤوس صلعاء وعمامات وخوذات واقية من الشمس. وسط هذا الخضم لم يتمكن من التعرف على أي وجه من الوجوه واستغرق الأمر بعض الوقت حتى استطاع رؤية مشهد له معنى: أمام أحد الدكاكين ارتاحت يدا أحد البقالين على أجولة الأرز. رجع بيرتون بظهره للوراء فيما خلفت العربة الميناء وراها ودخلت شارعاً واسعاً. وفقا لما يتطلبه اختبار الشجاعة، أفلت صبي بالكاد من تحت حوافر حصان العربة، وكافأ نفسه بابتسامة مستهزئة. تحت العجلات الدائرة يحصل رجل على حلقة ناعمة لذقنه. يُعرض أمام بيرتون طفل منزوع الجلد. يفزع ليرهة ثم ينسى المنظر. تراءى للحوذي أن يذكر أسماء المباني على الجانبين: بوابة أبوللو، وفي الخلف فورت، مبنى السكرتارية، ومبنى فوربس. سيبوي! أشار الحوذي إلى طاوية تحتها شعر لزج وتحت جسم نحيل وسيقان مشعرة ترتدي بنطلون عمل قصير. قال بيرتون لنفسه: شيء مفزع، هؤلاء هم الجنود المحليون الذين سأترأسهم، يا إلهي هذه الملابس ليست سوى مظهر، حتى تعبير الوجه يبدو وكأنه منحول من البريطانيين. مرت العربة بسرعة برهط من النساء بأيدي وأقدام موشومة. قال الحوذي فرحاً، عرس. اختفت النساء المتزينات بسرعة عند ناصية الشارع. البيوت ومعظمها مكون من ثلاثة طوابق، بدت وكأن الغنغرينا قد أكلتها. من إحدى الشرفات الخشبية كح رجل وبصق ما لفظه صدره في الشارع. المباني القليلة بدت في مظهرها وكأنها مشرف على مستعمرة للمجذومين. تكرر أمام بيرتون مرأى غربان رمادية الرأس بين قمم النخيل. في إحدى المرات حلقت الغربان حول ملاك رخامي يقبل قدم امرأة محجوبة الوجه. قبل الوصول إلى الفندق رأى الغربان تنقض على إحدى الجيف. أحيانا لا تنتظر الغربان مجيء الموت، قال الحوذي ملتفتاً أثناء سير العربة بسرعة.

الفندق البريطاني في بومباي لا يشبه بأي حال من الأحوال فندق "بريطانيا" في برايتون. في بومباي يُطلب الكثير من المال مقابل القليل من الراحة، على المرء أن يبحث عن سريره وطاولته وكرسيه. في برايتون لم يحدث أن وقف طالب كلية حربية مخموراً بشعر شعث ورائحة فم عطنة على أحد الكراسي ليتلصص من فوق الجدار المصنوع من الشاش على جاره. بيرتون الذي لم يستطع النعاس لساعات قذف الطالب بأقرب شيء التقطته يده من تحت السرير. أصاب الشيء المقذوف وجه الطالب، فهوى من فوق الكرسي مصدراً لعنة خافتة، ثم أضيفت شمعة وسُمعت صرخة: تعرف الطالب على الشيء المقذوف، كان جرذاً صرعه بيرتون قبل ذلك بقليل بحذائه. لم يقذف الطالب النحيف من تهديداته سوى الحائط القماش. امتدت يد بيرتون مرة أخرى تحت السرير وأخرجت زجاجة براندي. السحالي تحمل بشائر الخير أما الجرذان فمكروهة. كانت السحالي تُعلق على الحائط مثل منمنمات ملونة، أما الجرذان فكانت تختبئ، أحيانا بلا جدوى جاره من الناحية الأخرى كان ممرضا في منصب متميز. كان يجلس عند إفريز النافذة وينظر إلى البحر وبطيل النظر حتى تهب الريح في وجهه، ثم يصيح عبر غرفة النوم انتبهوا، رائحة مقالتي الهنود تهب! وصيحته تخترق بئر السلم وتهوي على

رأس البارسي الناعس الذي يقوم بخدمة الناس بتزلف مبالغ فيه. أغلقوا الأعين والطاقت! يفتح البارسي عينيه ويهز رأسه مستاءً. هؤلاء البيض الملاعين لا يتحملون المنظر إلا بتولية الأدبار.

رفض الممرض أن يرافق بيرتون إلى مكان حرق الجثث وقال له موضحاً إنه لا بد من الاحتراس من التعطش الزائف للمعرفة، فهو وليد الوعظ الأبوي الذي خرج لتوه عن طوع أمه. حاول بيرتون أن يلقي قصيدة مدح في مزايا الفضول، لكنه سرعان ما لاحظ أن الممرض أبدى قليلاً من الفهم لما حكاه له من تجاربه، طفولته في إيطاليا وفرنسا كابن لرجل لا يعرف الهدوء والراحة والوقت الذي قضاه في المدرسة الداخلية بوطنه المزعوم. مع ذلك فقد قبل الممرض أن يرافقه في عبور طريق كارناك، الذي يمثل الحد الفاصل بين عقل الإمبراطورية وأحشائها، وفقاً لما سمعه بيرتون أثناء أول عشاء في مجلس السادة الذين يديرون بكل رشاد مناطق بأكملها، أبناء بقالين من الريف الإنجليزي، وأحفاد وأنجال المحضرين القضائيين، يحملون بأيدٍ كافرة من الظل إلى الأماكن ذات الحرارة المعتدلة، أكثر غنى وسلطة مما تخيلوه في أكثر أحلامهم جراً. زوجاتهم يرسمن بدقة خريطة الأحكام المسبقة السائدة. كل جملة من جملهن عبارة عن لوحة تحذيرية، يأتريها بما يلي: اسمع أيها الشاب! لقد تجاسرن وكن متأكدات من الكلام الذي يجدر قوله عن الهند. المناخ: "لا يطاق"، الخدم: "محدودو الذكاء"، الشوارع: "عفنة" والنساء الهنديات: كلهن سواء، لذلك اسمع جيداً أيها الشاب! لا بد لك أن تتجنبهن، حتى رغم ترسخ بعض العادات السيئة في الأونة الأخيرة، وكأنه لا يمكن أن يلفن المرء رجالنا بعض دروس الأخلاق ويطلب منهم ضبط النفس. وأفضل شيء- وتلك نصيحة لن تجد أكثر منها صدقاً وأمانة- أفضل شيء أن تتأى بنفسك عن كل ما هو غريب! أزفة مصابة بالتهاب المفاصل، في كل خطوة ملامسة. كان على بيرتون أن يقفز مرة تلو الأخرى إلى الجنب وعينه مسلطة طوال الوقت على الحمالين والعتالين. الأحمال كانت الشيء الوحيد الذي كان من الممكن رؤيته فوق هذا الخضم البشري. قطع ضخمة جدا هامت فوق أمواج الرؤوس المهترزة وتمايلت. محلات للملابس والأقمشة. ورش بين الكثير من الورش المماثلة. تجار رقدوا على مرتبات وهشوا بالمنشة ليضطروا عن أنفسهم بعض الشيء، خلفهم مداخل صغيرة تقود إلى مغارات منتفخة كالعادة ويغمرها الذباب. كاد بيرتون أن يترجى هؤلاء البقالين لكي يعرضوا عليه شيئاً للبيع، وعندما كانوا يشعرون بالراحة، كانوا يعرضون عليه أسوأ البضائع المخزونة لديهم ويقسمون بأن البضاعة لا مثيل لها، وأنهم يتعهدون بكلمة شرف منهم أنها كذلك، حتى يرضى بشراء الخنجر الصغيرة أو التمثال الحجري الصغيرة لأحد الآلهة. ثم يبدأ شد وجذب حول السعر مصحوباً من جديد بزفير وتأفف وتعبيرات وجه غاضبة.

قال الممرض بشيء من اللوم: إنك تتحدث لهجة هؤلاء الأوغاد بشكل جيد. ضحك بيرتون: لقد أثار ذلك هلع السيدات الليلة الماضية، لا بد أنهن يفكرن في أن مشاركتهم الحديث بلغتهم تعني مشاركتهم السرير. مدينة سوداء. فجأة يظهر أمامهم معبد، مسجد ملطخ بألوان كثيرة ومزين بلون واحد. كان الممرض متقزراً من تمثال الإلهة سيئ الشكل، فرأسها الطفولي أكبر بكثير من جسمها. فلتفرح بالمفاجأة، على أية حال هذه هي الإلهة الحارسة للمدينة التي يتكلم الناس فيها بلغات عدة، أما هي نفسها فبكماء. مروا بجوار ضريح. بجانبه جثمان مغطى بقماش أخضر مطرز، وعلى الحائط تعلقت هراوات. "أوان من المقدس" قالها حارس موضحاً. أناس منبوزون وكلاب لا يمكن الاقتراب منها. Baba القرع من إفريقيا، الأداة السحرية لبابا أطراف الشحاذين المتغضنة غطتها ألوان مقدسة، بقرة مشوهة الشكل تحرك ذيلها إلى الجنب، ساقها الخامسة القصيرة دهنت بلون برتقالي. بعد ذلك بمسافة رقد شخص بلا أطراف فوق غطاء وسط الزقاق الذي يقود إلى المدخل الخلفي للمسجد، وحوله تناثرت عملات مثل بثور الجدري المتساقطة. رجل عار ببشرة داكنة تسبب في توقف حركة المارة. جسمه كان مدهوناً من رأسه لأخمصه بالشحم وربط منديلاً أحمر فوق جبهته. وأمسك سيفاً في يده. تجمع حشد ضخم حول صرخاته التي لا تتوقف. صرخ الرجل، أروني طريق الحق، ثم لوح بالسيف في الهواء. همهم رجل عجوز وقف بجانب

بيرتون بدعاء رده بوتيرة واحدة، في حين تطوح السيف العاري في الهواء مثل سوط وتحول الجمع المحيط به تدريجيا إلى عدو. ماذا يحدث هنا؟ أنا لا أفهم ما يحدث؟ اختبأ الممرض خلف بيرتون. الرجل العاري دار دورة بسيفه المشهر مصدرا هسيسا، حتى تعثر فوق وأفلت منه السيف، انقض بعض الرجال من الحشد عليه وبدعوا يضربونه ويركلونه. ترجى الممرض بيرتون، لا تتدخل، إنك ضخم الجثة وربما قوي ولكنك لا تستطيع أن تفعل شيئا مع هؤلاء المتوحشين. حتى لو إقتلوه؟ ليس هذا من شأننا

قال الممرض في طريق العودة، متوسط العمر الافتراضي للقادمين الجدد، فصلان من الرياح الموسمية. لا تقلق، قال له بيرتون مواسيا، هذا يسري بالتأكيد على الناس الذين يعيشون بحذر واحتراس ويموتون جراء إصابتهم بإمساك مستعص. إمساك مستعص؟ قال الممرض مغمغما. لم أهيئ نفسي مطلقا لشيء من هذا القبيل

المقتطف الثاني

الجسد ذو اللون الدخاني

كان يتمنى أن يتمكن من طرد الليل بركلة قدم. وأن يطرد الكابوس الأخير. في الخارج بصق شخص يسير منفردا وسط صرير خطاه المتعجلة: بدا أنه كان يتعجل الوصول كأول شخص يستقبل الفجر. مزقت الغربان ما تبقى من سكون بمناقيرها الخشنة. وقف أمام الشباك وضغط جبينه على السلك الشبكي. أشعل أحدهم نارا، تحية، ثم استعدادا لأول شاي في اليوم. مرقت رائحة السماد فوق الحقول التي يتصاعد منها بخار الماء مثل يد غير مغسولة. كان الهواء باردا، وبه مسحة رطوبة. سمع ناوكارام يفتح الباب ويضع الصينية. بحثت يده عن الإبريق وصب الشاي الأسود في الفنجان ووضع عليه بعض قطرات من الحليب. عندما وضع الفنجان على فمه لاحظ أن نور الفجر قد تسلل إلى الغرفة. وكأنه خجل من كونه قضى الليلة الماضية في مكان آخر. استمتع بدفء الفنجان في يديه ثم أحس بها تضغط صدرها في ظهره. كانت تلك طريقتها في تحيته. سألها إن كانت ترغب في رشفة شاي رغم أنه يعرف أنها سترفض. يستطيع أن يكون شريكها في السرير لكن لا يمكن أن يقتسم معها فنجانا من الشاي. لم تأكل معه مطلقا. كانا يعيشان على نفس قطعة الأرض، لكن كان عليه أن يأكل وحده. قالت له هكذا الأصول. كانت ترفض طلبه ودعواته لها، مثلما كانت ترفض حتى ذلك الحين أن تقضي ليلة كاملة عنده. عندما تصحو، تجدني عندك. كانت تحافظ على وعدها- وعلى المسافة بينهما. طلبت منه بعكس المحظيات الأخريات اللاتي عاشرن، أن يطفئ كل الأضواء قبل أن تخلع ملابسها. كان هذا هو شرطها من البداية. تقبل رغبتها وعدها تعبيرا عن الحميمية. كان القمر في المرة الأولى معينا لطيفا. كانت بشرتها موضعا لبصماته. حاول أن يقبل فمها، وكانت تعلق شفيتها. شعر بالإثارة كونها سلمت له جسدها دون أن تفتح ذاتها. لقد أثبتت أنها ماهرة ومدربة مثل الغانيات الأخريات. ليس عليه أن يفكر في شيء ولا أن يتخذ أية قرارات، كانت تلبى رغباته قبل أن ينطق بها. دار برأسه أنه يتأملها وهي تمارس عملها، أفاقته الفكرة وجعلته يبلغ ذروته صامتا. بعد ذلك، وكانت عيناه لا تزالا مغلقتين، وقفت هي على الفور، وسمع الوقع المكتوم لخطاها الحافية. لم تعد مرة أخرى. بعد عدد من تلك الليالي أحاط ناوكارام علما بأن كونداليني ستنتقل إلى البابوخانة. فرح ناوكارام فرحة حقيقية، هكذا تبدى لبيرتون وتأثر لكون ناوكارام يُعنى بأن يكون سيده على ما يرام. في ليلة من الليالي، حيث أن الليل هو الوقت الوحيد الذي تجعل فيه البرودة تلامس الأجساد محتملا، أمسك بذراعها عندما أرادت أن تنهض. احتجت. قالت، لا بد أن أعود. ابق قليلا أرجوك. استندت بظهرها للوراء. أشعل مصباحا ووضعها في مكانه في ظل نظراتها المتوجسة. أراح عنها الساري الذي كان يغطي جسدها، كان يريد أن يتأمل بشرتها بلونها الدخاني الداكن. كان يريد أن يرى كل شيء فيها لكنها غطت على الفور عورتها بيد، وبالأخرى حاولت بلا جدوى أن تخفي ثديها.

وفي النهاية وبعد أن وجدت نفسها صريعة لفضوله اعتدلت في جلستها وغطت عينيه بيديها. لم يبد مقاومة كبيرة، وفرد أصابع قدميه وبدأت هي تضحك، مقرقرة مثل الماء الذي يبدأ في الغليان. عانقها وهو لا يزال أعمى، عانق ضحكها. قال لنفسه، هذا أمر لا بأس به. فقط لو أمكنه أن يعرف إن كان النوم معه يعجبها.

المقتطف الثالث

عندما رقدا سويا في المرة التي تلت ذلك كانت هي فوقه، أنينه كان يشي بالعاصفة التي ثارت بداخله، سكنت هي ولم تعد تتحرك، وتركت يدها ترتاح على صدره وبدأت تتحدث وهي جالسة فوق دهشته النابضة، تحدثت بجمل كاملة بصوت مألوف يحكي بشكل عارض لكنه يتطلب كامل انتباهه. كان عليه أن يخفف من حدة أناته لكي يتمكن من متابعة كلامها، كانت تحكي عن المحظيات الأفاعي اللاتي تعودت أجسادهن عبر السنين على السم، في البداية على قطرة منه ثم عدة قطرات ومع الوقت زادت الكمية وصرن يتناولن منه يوميا ما يعادل ملعقة شاي. في النهاية كان بمقدورهن أن يشربن كوبا من السم دون أن يصيبهن ضرر. لكن عرقهن ولعابهن وما يسيل من شهوتهن صار مسمما لدرجة أن كل من ينام معهن، مصيره الموت. حتى من يمسخ دموعهن ويلعقها بفرجه، يصبح في عداد الموتى. هل تفهم، عليهن أن يستسلمن لشهوتهن فقط عندما ينبغي عليهن قتل رجل. هن لسن سوى قاتلات أجيرات في خدمة سيد. غير مسموح لهن أن يحببن أحدا. وهن يسممن كل من يلمسهن، كل من يقبلهن، بغض النظر إن كن يحترقنه أو يعيشنه. هل لك أن تتخيل مأساتهن؟ رقد بيرتون بلا حراك على السرير، وعضوه صار عبارة عن ادعاء تراجع عنه. خمشت صدره بأظافرهما. وقالت، القصة لم تنته بعد. كان هناك شاعر، ربما أكثر شعراء البلاد موهبة، عشق واحدة من هؤلاء المحظيات، ولم يكن قد رآها إلا بالكاد، هي التي يقال عنها إنها أجمل امرأة في هذا الزمان. لم يكن شابا أهوج أو هائما، لا بل كان رجلا ذا خبرة ودراية، كان يعرف آداب البلاط وقانون المشاعر. تعذب طويلا وكان شديد التردد في الاعتراف لها بحبه. وفيما كان يصارع شكوكه تكلمت معه على ضفة نهر يمونه. طلبت منه أن يعطيها دروسا في السنسكريتية. هذا هو الشيء الوحيد الذي ينقصها من بين الفنون التي يتوجب على محظية أن تعرفها. حصل على موافقة الحاكم بأن يدرسها يوميا. مالت كونداليني إلى الأمام وداعبت خصلات شعرها وجهه، ثم اعتدلت ثانية واختفت يداها وشعر بأظافرهما تداعب باطن فخذيه. قالت له، اسمعني جيدا. المحظية عشقت الشاعر مع الوقت عبر سنوات درساها، ببطء وتأن، مثلما تعودت على السم. وفي يوم من الأيام اعترفت له اعترافا ذا شقين، من جهة اعترفت له بحبها وفي الوقت ذاته بتربيتها المميته. أنا أفكر دائما في الذي أحس به الشاعر حينها، حيث أن حبهما المتبادل سيولد ميتا. لم يعرض عنها وقرر أن يتوحد مع المحبوبة، حتى لو كان ذلك لمرة واحدة. أتفهم، لقد تحمل أن يوازن هذا الاستغلال الذي تحياه هذه المرأة. أصابت بيرتون قشعريرة. وبعد؟ هذا هو الغريب في هذه الحكاية، للقصة صيغ عدة لكنها جميعا تشترك في أنه مات طبعاً، لكن أثناء موته ارتاحت ملامح وجهه كاشفة عن تلك السعادة التي لا يعرفها سوى من رأوا باب الخلاص. قامت كونداليني من فوقه وتمددت بجانبه ومرت بأظافرهما فوق عضوه المتهدل. هذا يا سيدي هو فن تأخير الذروة. إذا كنت قد استرحت من حكايتي نستطيع أن نبدأ من جديد. رآها الآن بعيون أخرى. كان يود لو يعطيها قبلة في وقت ينسى فيه من هي ولم ترقد في هذه الغرفة. لكنه لم يكن مثل الشاعر. لقد اكتشف في نفسه جينا، لم يكن يظن أنه من شيمته.

المقتطف الرابع

من يعلم التلاميذ الشطارة

الرائد والتر سكوت- نعم أحد أقرباء الكاتب الشهير بل أحد أحفاده المباشرين- يدك عمود القياس المسحي في الأرض. خطوط العمود الحمراء والبيضاء جعلت الصحراء تبدو وكأنها في لباس سجين. الأرض كانت مثل بشرة ملتهبة ومهترئة فوق صلصال أسود. قال، ستتعلم سريعا. المسألة سهلة مثل لعب الورق. نحن لا نفعل شيئا سوى أننا نربط المناطق المجهولة بالمناطق المعروفة. نحن نحاصر الأراضي مثلما نحاصر حصانا برياً. بالوسائل التقنية. نحن الطليعة الثانية في عملية الاستحواذ والتملك. في البداية يأتي الاحتلال، ثم تتم عمليات المسح والقياس. نفوذنا موجود على ورق الرسم البياني. أنت متبرم لأنك لم تر وحدة قتالية حتى الآن. لكن غضبك لا مبرر له، فترسيم الخرائط الذي نقوم به يحظى بأهمية عسكرية كبرى. البوصلة والمزواة وميزان الاستواء، تلك هي أسلحتنا. ومن يعلق في شبكة الإحداثيات التي نصنعها فقد أضاع نفسه، إذ أصبح مروضا للمدنية. أغلق عينا وأفتح الأخرى مركزا النظر بأقصى حدة ممكنة. كمساح لا تحتاج سوى صفة واحدة. لا بد أن تكون دقيقا دقة مطلقة. نحن المساحين أناس شديدي الدقة. إذن فلنتعود على شيء من الحذقة والدقة المتناهية. المبدأ سهل ومتخيل. النقاط الثابتة موجودة في مثلث. شيئا فشيئا ننقدم، مثلث بمثلث، مضلع بمضلع. لا نستطيع أن نرصد في اليوم أكثر من كيلومتر واحد. لذلك نعسكر لأسابيع في مكان واحد ونمد مثلثاتنا في جميع الاتجاهات. هناك قيمتان يجب رصدهما: المسافة والارتفاع. وطبعا الزاوية بين موضع ما والارتفاع عنه. وكيف يمكننا تعريف الزاوية يا ديك؟ هل هي المسافة بين التزمّت والزندقة؟ في الواقع إنها الفرق بين اتجاهين. إذن أنا كنت تقريبا على صواب؟ هل تعرف يا ديك، ما الذي يعنيه في الرياضيات أن تكون "تقريبا" على صواب؟ لماذا يصعب علي أن أتخيلك مساحا؟ بالطبع لن يكون لبيرتون مستقبل مهني وهو يمسك بعمود القياس المسحي في يده، وسكوّتي على حق في ذلك. لقد ألحق بهذه الوحدة، لأنه كان من اللازم أن يلحق بوحدة ما ولأنه كان يستطيع انطلاقا من تلك المخيمات البعيدة أن يقوم بحملات صيده. يستطيع أن يكون مفيدا بالوقوف وراء ميزان الاستواء. أغلق عينيه. إنه ذاك الوقت من النهار الذي تتحلل فيه الأفكار. كيف يمكن للمرء أن يحدد الموضع الدقيق لنقطة بعينها، إذا كان كل شيء يومض. عندما فتح عينيه ثانية. رأى درويشا يمر عبر ميزان الاستواء. برداء أسود وطاقيّة مرقعة. أنا الشخص الذي يطير من تلقاء ذاته. عيناه ترفد غارقتين في حوض من الكحل. ويداه مزينتان بخواتم ضخمة. أغلق بيرتون عينيه، وعندما فتحها كان الدرويش قد لبس رداءً أخضر والسلاسل والعقود حول رقبته من الفضة والصفائح، من القماش والأحجار الكريمة. أنا الذي يطير من تلقاء ذاته. شعره، لحيته مصبوغة بلون بني يميل إلى البرتقالي كالحنة. يعلق بيرتون عينيه ثانية. هل رأيتم؟ ينادي زملاءه عكس اتجاه الريح. يردون عليه صانحين، ما هي القيمة التي رصدها؟ لم يكن ظهور الدرويش لمرة واحدة فقط. كلما اقتربت مثلثاتهم من القرية المجاورة، كلما كثر ظهوره على مسافة مضمونة من عيني بيرتون الراصدة. في كل مرة كان شخصا آخر، هذا الدرويش. لا يبدو أنه يقنع بواحد من الشخصوس التي تجسد فيها من قبل، غريب أن الآخرين لا يرونه. في أحد الأيام وكان يوم العمل قد انقضى تقريبا قرر بيرتون أن يتبعه حتى أحد المساجد بجواره ضريح مسيح. مدخل ملئ. كثافة بشرية وهياج. سمع أغنية، جذبته إلى الداخل، أغنية هزته، أغنية خدشت طلاء الغرفة الخبيثة لكيانه. هذا التلاقي، كان إشراقا. المكان الذي أمامه كان مشرقا، هو نفسه غمره فيض الضياء. كانت مناسبة احتفالية. كان ضريح الولي مشحونا بأشواق لا نهاية لها. كان هناك زحام امتصه داخله بلطف، زحام به شيء من حلوة هذا الزحام الذي سيكون على أبواب الجنة. لم يتمكن من الوصول إلى الضريح المكسو بقماش أخضر. لقد صرفه عنه شيء ما. أمام الباب الصغير الذي كان زوار الضريح يدخلون عبره مطأطئين، جلس بعض الرجال على الأرض. كانوا ينشدون أغنية أثرت فيه. كانت مثل إعلان حب لكل ما هو حي. صوت المغني لم يكن مألوفا، كان صوتا يعطي للجديّة

العميقة نغمة صارخة مجنونة، تأخذ في التعالي، بوتيرة متكررة محمومة يلهج بترانيمه. فجأة يحملق الدرويش في عينيه. يتواصل التكرار المحموم للغناء. قالت عينا الدرويش: اجلس. ابق! كلنا هنا ضيوف. كلنا رحالة. كن واحدا منا. وأشاعت الأغنية مزيدا من الضياء على الليل وعلى الزحام، على الجموع السيارة.

المقتطف الخامس

سيادة الشاعر

تقرير إلى الجنرال نابير

شخصي

لقد كلفتموني بأن أجمع معلومات، نتيج لنا أن نكون انطبعا عن الكيفية التي ينظر إلينا بها أهل البلاد. لقد قضيت ساعات طويلة لدى أناس من أهل السند والبلوشيين وأهل البنجاب من كل الطبقات، في الأسواق والحانات وفي مقار الإقامة المؤقتة لأغا خان. وأولت أذني اهتماما بكل ما يقال لها، وتجنبت التعليق على ما سمعت. لقد انطلقت من اعتبار أنني أرى العالم بشكل أحادي الجانب مثل هؤلاء الذين يدلون بأرائهم أمامي. ولم أكن متصنعا، لأنني مقتنع بأن الشرقيين يكشفون كل ما هو مصنوع متكلف. لقد اكتفيت بدور المستمع ولا بد أن أؤكد دون أي تواضع زائف أنني سعدت بمحبة نادرا ما لاقيت مثلها في حياتي. صعوبة مهمتي تكمن في تلخيص ما جاء مختلطا وملتويا في الأحاديث التي لا تحصى التي أجريتها، بأسلوب متحذلق ومصنوع. التعميمات تدهس الجميع بلا هوادة وتسويهم بالتراب، وعلينا أن نحترس منها وأن ننأى عنها كما ينأى الشيطان عن ماء المعمودية المقدس، لكنني لم أستطع تجنبها تماما من أجل أن أقضي المهمة التي كلفتموني بها، وأن نحصل على أكبر نفع ممكن من المعلومات التي جمعتها. أسمعكم تقولون، فلتدخل في الموضوع، وأنا سأعجل في أن ألبى رغبتكم أهل البلاد يروننا بشكل مختلف تماما عن كيفية رؤيتنا لأنفسنا. قد يبدو هذا الكلام مبتذلا، لكن علينا أن نضع هذا التصور نصب أعيننا دائما في التعامل معهم. إنهم لا يعتبروننا بأية حال من الأحوال شجعانا أو أذكاء أو كرماء أو متحضرين، إنهم لا يرون فينا سوى النذالة والانحطاط. إنهم لا ينسون أبدا الوعود التي أطلقناها ولم نف بها. لا يغضون النظر عن أي موظف مرتش يطبق عدالتنا نحن. يشعرون بأن سلوكياتنا مقرزة، وبالتأكيد يعتبروننا كفارا خطرين. كثير من أهل البلاد يتوقون إلى يوم الثأر والانتقام، ليلة شرقية للنصال الحادة الطويلة، كما يعن لي أن أسميها، إنهم ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذي يطردون فيه الدخيل القدر. إنهم يكشفون نفاقنا، بمعنى أدق، فإن تناقض تصرفاتنا يتراكم أمام أعينهم ليشكل منظومة من النفاق الشامل. قال لي شيخ في حيدر آباد، إذا أظهر الإنجليز كثيرا من التقوى، وإذا ما ملئوا آذاننا بحواديث عن شروق شمس يسوع المسيح، إذا وعدوا بنشر المدنية وتحذوا عن المزايا الكثيرة التي أغدقوا علينا نحن البرابرة بها، إذا فعلوا ذلك نعرف أنهم ينوون القيام بسرقة جديدة. إذا بدعوا يتحدثون عن القيم، نعتبر ذلك تنبيها لنا. قد نسب هذا الرجل قائلين إنه كلبى متهمك، لكنه دون شك متهمك ذكي وله احترامه. ولأن المثال يغني عن مئة إدعاء، سأحكي لكم الواقعة التالية. قبل عدة أشهر تم القبض على أحد البلوشيين في منطقة نائية غرب كرشات، وكان زعيما لإحدى القبائل، وأتهم بأنه يقوم بتنظيم هجمات نهب وسرقة على خطوط إمداداتنا. هذا البلوشي كان معروفا بأنه مبارز محنك وخبير، لذا فإن الضابط الذي ألقى القبض عليه، خطرت له فكرة منازلته. لقد تخيل أن انتصاره على البلوشي سيكون بمثابة استعراض لتقوننا العسكري. وُضع زعيم القبيلة على حصان هرم متعب، بينما قفز الضابط فوق جواد مدرب على حوض المعارك. انقضض الضابط بهمة

وعنفوان بادئا بهجمة تلتها عدة هجمات، لكن رغم نتالي هجماته وضرباته كان البلوشي يصدها بالسيف والدرع. تزايد إحباط الضابط الذي كان يعتز كثيرا بقدراته في المبارزة. كان يسمع للصيحات غير المفهومة للأهالي وكان لها في أذنه وقع الاستهزاء، كأنها تقول له أنه لن يكسب النزال، رجلا لرجل. وسيخسر سمعته المهيبه بين زملائه. قام بهجوم أخير بمسدس أشهره، وبدلا من أن يوجه طعنة لغريمه أطلق عليه الرصاص من مسافة قريبة جدا. هذه القصة تداولتها الألسنة في جميع أرجاء البلاد، إنها تنمو وتتضخم وتثبت زهور الضغينة المسمومة، التي تصور الظلم الذي وقع على بوصفه تدبير قوى شيطانية غيبية. هناك صيغ مختلفة متداولة للحكاية، لكن الهيكل المشترك بينها جميعا ما أوضحته أنا. وما كان له وقع أكثر سوءا في نفوس الناس مما فعله الضابط، هو أنه لم يقدم لمحكمة عسكرية محترمة لمحاسبته على ما اقترفه. بل على العكس لقد حصل على ترقية وهو يتقلد اليوم منصبا رفيعا.

المقتطف السادس

ابن لأمين

عندما سمع بيرتون عنه للمرة الأولى، كان الرجل مقبورا تحت اسمه، تحت الأسم الذي يلخص كل الشوائم التي تهيلها المدينة عليه. كان اسمه لقيط بارودا. كان معروفا فقط بهذا الاسم. كان من غير المتخيل أن يكون له اسم آخر. كان منبوذا، وما كان لأي ممن يحرسون على سمعتهم أن يحتكوا به، لولا أنه يُطلب أحيانا إلى المحكمة في حال غياب المترجمين المعينين. كان اللقيط ينجز هذه المهمة بهمة. وكان يبدو أنه يبث الهدوء في نفوس المدعى عليهم الذين لا يأتون بطيب خاطر إلى المحكمة للإدلاء بأقوالهم. وكان يعرف كيف يلبي رغبات القاضي برهافة حس مذهلة. اللهجات المحلية كانت تتساب من فمه في سلاسة، على عكس إنجليزيتة السلمية نحويا والتي تبدو وكأنه فرض عليها حجرا صحيا لوقت طويل. ولأن لقيط بارودا لم يكن له بخلاف عمله في المحكمة أي احتكاك بالبريطانيين، كان يستخدم إنجليزيتة التي علمها لها أبوه الأيرلندي، فقط في المحكمة. أبوه فر من الخدمة العسكرية وذهب إلى ما وراء الحدود الشمالية الغربية حيث أنجبه من امرأة من السكان المحليين. والاحتقار الذي لاقاه الأب في الماضي انتقل إليه أيضا دون أي فرق كبير. وفيما تمكن الأب من الهروب من اللعنات وعاش في المجمل حياة سعيدة، كان ابنه ضحية لها. قابل بيرتون لقيط بارودا في الشارع، تعرف عليه من خلال ملابسه، من الهلهلة والفوضى التي سمع أنه مشهور بها. لا أحد غيره كان سيرتدي سترة عسكرية مهترئة مرفعة بخرق ومزق بألوان شتى تحتها زي هندي من قماش خشن وعلى الرأس قبعة مليئة بالثقوب، لتبريد مخه، حسبما تقول عنه إحدى النكات. أرغم بيرتون حصانه على أن يبطن خطواته التي لحقت بخطوات الرجل، ثم تحدث إليه بالهندوستاني. ودون أن يرفع رأسه رد المترجل بالإنجليزية. أصر بيرتون على التحدث بالهندوستاني. قال الرجل بفضافة، تحدث معي بالإنجليزية. ولم؟ لأنني بريطاني. أنت؟ تساعل بيرتون مندهشا من وقاحته. عجا لأن يجرأ كل من هب ودب هنا على الإدعاء أنه بريطاني. أنت لقيط، قالها بيرتون قبل يلكز فرسه استعدادا للانطلاق من جديد، لم يقلها بلهجة خالية من الود، لكنه قطع عليه أي سبيل لمعارضته. ثم قال في سره وككل اللقطاء فإنك تجمع أسوأ ما لدى الطرفين من صفات، هذا هو قانون الطبيعة، السلبيات تفرض نفسها.

وقد بدا أن اللقيط قرر أن يؤكد بتصرفاته ما ظنه بيرتون به. في عيد ميلاد الملكة ظهر أمام مطعم الكتيبة وطلب الدخول. كل مواطنيها لهم الحق أن يشاركوها الاحتفال بهذه المناسبة. كان له أن يعتبر نفسه محظوظا لأنه شد من ياقته فقط وألقي به في الشارع. لم يستسلم بسهولة هذا اللقيط. بعد برهة سُمعت صيحة من مطعم الكتيبة وأكدها تعجب بصوت عال. يا إلهي،

هذا أمر غير معقول! تجمعوا حول إطار الشباك وسلطوا أبصارهم على هذه الوقاحة الشيطانية. جلس اللقيط على طرف الشارع حيث منبت النجيل المصفر الذابل. فرد فوطه بيضاء ووضع طبقا من الخبز مزخرف بنقش لأوراق اللبلاب. الله أعلم من أين أتى بها. وصب لنفسه بعض الشاي من إبريق له عنق على شكل بجة وأمكن لهم رؤية اللون الغامق للشاي الذي يشربه، فلم يكن من تلك النوعية الفاتحة التي يشربها هؤلاء الآخرون. أمسك الفنجان بإبهامه ووسطاه، وفرد كذلك إصبعه الصغير في غير اكتراث بالحرس الذين أحاطوا به وأخذوا يصرخون فيه ورشف الرشفة الأولى. أظاحوا له بفنجان الشاي من يده، لكن الشاي الساخن - سواء عن قصد أو بدون - أصاب وجه أحد الحراس. وسقط الفنجان على الأرض، وتحطم على الفور ودهسته أذية الحرس الذين انقضوا على الرجل النحيف. هرع بيرتون مع بعض الرفاق كي يحول دون أن تزهق روح اللقيط على أيدي الحرس. رقد غارقا في دمه وسط شظايا الفنجان المتناثرة. لم يعرف أحد أين كان يسكن اللقيط وكان من المستبعد نقله إلى مطعم الكتيبة. الضباط الذين هرعوا إليه وقفوا حوله لبرهة ثم عادوا أدرجهم واحدا تلو الآخر، وواصلوا الاحتفال. كان بيرتون يخطف بين الحين والآخر نظرة من الشباك. لم يتحمل أن يترك الرجل راقدا هكذا في الخارج. على الفور نادى ناوكارام وبعض الخدم الآخرين. نقلوا اللقيط إلى منزل بيرتون وأرقدوه على السرير في البابوخانة. وجود القروء في الغرفة لن يزعج هذا الشخص الفاقد للوعي. الوعد بزجاجة نبيذ بورتو معتقة أقتع هانتينغتون العجوز أن يفحصه، ويرى إن كانت به أية كسور في العظام وأن يضمده له الجراح. في اليوم التالي اختفى اللقيط.

منذ ذلك الحين لم يظهر ثانية في المحكمة. قضى أيامه عند مفارق الطرق الحيوية يعظ متحدثا عن حقيقة لم يفهمها أحد. السكان المحليون تركوه في حاله، وأطلقوا عليه بقدر من الاحترام اسم قالاندر. أي المجنون الذي قبله الرب. في ذات صباح مبكر وفي واحد من أهم الأسواق التي تقام شهريا، تسلق شجرة تطل على الشارع الذي يقود من جهة الشرق إلى المدينة وصاح بكل قوة: دنيا كوردو، جيسو كريستو باكرو. هار هار ما هديف. أي فلتعتزلوا العالم وتمسكوا بالمخلص. فليتمجد الرب القدير. كل الحكايات عن هذه الواقعة تتحدث عن المدة الطويلة التي استغرقتها صيحاته. ظل يصيح بهذه الجملة حتى بعد الظهر عندما بدأ التجار يعودون إلى قراهم. لا أحد يجروء على التنبؤ بسلوك قالاندر، وهكذا تمكن اللقيط من أن يفاجئ البريطانيين في يوم من الأيام وهو يسير مرتديا بدلة ابتلعت أكماتها ذراعيه، وتجرجر ذيل سروالها على الأرض. النقش الذي كان على البدلة كان يشبه بدرجة كبيرة العلم البريطاني. ملفوفا في علم جالنتها، تبتخر اللقيط يوما ما في شوارع بارودا وسار الهويني للمرة الأولى منذ العلفة التي نالها في عيد ميلاد الملكة، أمام مطعم الكتيبة، حتى أبعده. لكنه لم يتركهم يفعلون ذلك دون أن يصرخ، لا أحد يستطيع ضربي، وإلا فإن ذلك سيعني إهانة لقدسية العلم، ضد القيم التي يرفرف هذا العلم من أجلها. لكن العجب تحول إلى غضب شديد عندما جاءت إخبارية من سوروات ساهمت في حل اللغز الخاص بالعلم. في منتصف إحدى الليالي تمت قبل أيام سرقة

العلم من على سار في مدخل الوحدة. ولم يستغرق الأمر وقتا طويلا حتى عثر الجنود المحليون لم يكن الغضب لهذه الدرجة التي تجعل الضباط يتحركون - الذين تم إرسالهم على اللقيط. وجاءوا في الوقت بالضبط لأنه كان على وشك أن يضع خرقة من العلم فوق ظهر كلب من كلاب الشوارع كان يطعمه بانتظام. ألقى باللقيط في السجن، ورأى عدد غير قليل من الناس أنه هناك سيكون على أفضل حال حتى يتخلص العالم من وجوده. بيرتون كان هو الوحيد الذي كان يقف في صفه، ما أثار تعجب الجميع. كان يقول إنه من الضروري الإفراج عن اللقيط، حيث أنه ليس مسؤولا عن سلوكه الفاسد، هذا ما جناه عليه أبواه منذ المهدي وبدلا من أن نلعن هذا المخلوق البائس، لا بد أن نأخذ العبرة من حالته المقرزة، بمعنى أن الدم الغربي لا يجب أن يختلط بالدم الشرقي، إنه اختلاط بمزق، يا سادتي، كلا الطرفين، بالطريقة المؤلمة نفسها التي تمزق بها

list.